

مستويات الفصاحة وتمثلاتها في كتاب سيبويه

سعيدة سعدودي^{1*}، أمينة حماني²¹جامعة أمحمد بوقرة بومرداس ، s.sadoudi@univ-boumerdes.dz²جامعة مولود معمري تيزي وزو ، minahamani17@gmail.com

الإرسال: 2024/05/12

القبول: 2024/11/23

النشر: 2024/12/15

يعدّ سيبويه من أبرز النحاة الذين حظي موضوع الفصاحة عندهم باهتمام كبير ، إذ اعتمد سيبويه في كتابه "الكتاب" على كلام العرب الفصيح في استنباط قواعده النحوية والاستدلال عليها ، فاهتم بوصف كلام العرب ، وحرص على بيان الفصيح وغير الفصيح في الاستعمالات اللغوية لديهم ، وبناءً على ذلك جاءت إشكالية البحث كآلاتي:

كيف حدد سيبويه المستوى الفصيح من كلام العرب ؟ وما هي أهم المصطلحات الدالة على ذلك في كتابه "الكتاب" ؟ وتسعى هذه الدراسة إلى الكشف عما استقر عنده من الأحكام المتعلقة بالأنماط الاستعمالية الفصيحة القائمة على "القوة" و"الأصل" و"الجودة" و"الكثرة" وغيرها من المعايير التي اعتمدها سيبويه في تحديد مستويات الفصاحة عند العرب.

الكلمات المفتاحية: سيبويه ، الفصاحة ، الكتاب ، المستوى الفصيح.

Levels of eloquence and their representations in Sbawayh book

Abstract: Sbawayh is considered one of the most prominent grammarians for whom the subject of eloquence received great attention. In the book "Al-Kitab," Sbawayh relied on the eloquent speech of the Arabs in deducing his grammatical rules and inferring them. He was interested in describing the speech of the Arabs, and he was keen to explain the eloquent and non-eloquent ones in their linguistic usages, and based on The research problem came as follows:

How did Sbawayh determine the eloquent level of Arab speech? What are the most important terms indicating this in his book "The Book"? This study seeks to reveal the rulings he has settled on regarding eloquent usage patterns based on "strength," "origin," "quality," "frequency," and other criteria that Sbawayh adopted in determining the levels of eloquence among the Arabs.

Key words:Sbawayh, Eloquence, Book, Eloquent. Level.

1 - مقدمة:

يرى أبو هلال العسكري وغيره من العلماء ، أن معرفة الفصاحة أحق العلوم بالتعلم وأولها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه ، يعرف بها إعجاز كتاب الله تعالى ، وقد أصبحت الفصاحة مدخلا لعلوم اللغة وآدابها وفهم لأصولها والاطلاع على مقاييسها ، فلقبت عناية كبيرة من علماء اللغة فحرصوا على البحث في فصاحة الألفاظ وفصاحة التراكيب ، فخصت الفصاحة بالبحث والدراسة.

إنّ موضوع الفصاحة حظي باهتمام اللغويين ، والبلاغيين والتّحاة ، والنقاد وعلماء الكلام والتجويد والأصوات فكيف لا وهي مجال اهتمامها مرتبط بالقرآن الكريم والحديث الشريف فكان هدفهم واحد وهو صون لغة القرآن الكريم ؛ لذلك وضعوا مقاييس للكلام الفصيح ولم يقبلوا ما خالف مقاييس الفصاحة التي حددها.

2 - الفصاحة ومستوياتها في الكلام العربي:

وردت كلمة (فصح) في معظم معاجم اللغة العربية وتطلق على معان كثيرة فهي في أصل الوضع اللغوي ، تعني الوضوح والظهور والبيان ، وجذرها اللغوي (ف ، ص ، ح) حسب ما ورد في المعاجم العربية من استقرار لهذه المادة ، نذكر أولا مقاييس اللغة لابن فارس إذ يقول: "الفاء والصاد والحاء أصل يدل على خلوص في الشيء ونقائه من الشوب من ذلك: اللسان الفصيح: الطليق والكلام الفصيح ، العربي الأصل أفصح اللب: سكنت رغوته وأفصح الرجل...تكلم بالعربية ، وفصح جادت لفته حتى لا يلحن"¹.

وجاء ورودها في جميع المعاجم اللغوية بمعنى اللسان الفصيح تفصح في كلامه وتقاصحوا فصح الصبح إذا بدا ضوءه ، ويقال: أفصح الصبح إذا ظهر ومعنى هذا أنّ كلمة (فصح) تتجلى في استعمالات مختلفة والتي لها علاقة مباشرة بالبيئة اللغوية التي كان يعيش

فيها العرب قديما فإذا قلنا (فصح اللب أو لب فصح) فإننا نقصد صفاءه من الرغوة وذهاب الشوائب منه كاللبأ والزبد ، وإذا قلنا أفصح الرجل نقصد جاد كلامه وفهمه عنه . هذه هي الاستعمالات الفصيحة حسب العلماء وكلها تدل على الإبانة في الكلام ؛ أي الكلام الظاهر البين ، والذي تكون ألفاظه سلسلة مفهومة ، ومعانيه واضحة بعيدة عن التكلف .

كما أن الفصح في المفردات هو ما كان خالصا من عيوب الكلام بعيدا عن الغرابة ولم يخرج عن القياس ، وهذا ما ورد عن الجرجاني في كتاب التعريفات حين قال: "الفصاحة في اللغة العربية عبارة عن الإبانة والظهور ، وفي المفردات خلوصها من تنافر الحروف والغرابة ، ومخالفة القياس ، وفي الكلام خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات مع فصاحتها ، احتراز به ، نحو زيد أجل ، وشعره مستشزر ، وأنفه مسرج ، وفي المتكلم ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح² فالجرجاني يقصر موضوع الفصاحة على جودة الكلام التي تتحقق فيه وذلك بالابتعاد عن اللحن والضعف والغرابة ، كما أن معاني مادة (فصح) حسب ورودها في المعاجم العربية الأصلية وكذا عند أهل اللغة لا تخرج عن الظاهر والبين من الكلام والملائم للقياس المألوف في السمع والمتألف من ألفاظ سهلة مألوفة الاستعمال ؛ أي أن الفصاحة هي جودة الكلام وحسنه في السمع إضافة إلى خلوصه مما يشوبه ويعيبه كاللحن والعجمة .

ولا يوجد تحديد ثابت للمفهوم الاصطلاحي للفصاحة ، لا في كتب اللغة القديمة ولا الحديثة ، ذلك لأن معاييرها تختلف من كتاب إلى آخر ، فنجد عبد الرحمن حسن الميداني في كتابه "البلاغة العربية" قد ذكر ما ورد في اصطلاح علماء البلاغة حول الفصاحة وأنها: "تأتي وصفا للكلمة الواحدة ، ووصفا للكلام ، ووصفا للمتكلم ، فيقال: كلمة فصيحة ، وكلام فصيح ، ومتكلم فصيح"³ ويقصد بالكلمة الفصيحة التي تكون خالية من التنافر والغرابة وغير مستكرهة في السمع ، والكلام الفصح هو المؤلف من ألفاظ فصيحة واضحة المعنى ويكون بعيدا عن التعقيد في تركيبه ، أما المتكلم الفصح فهو الذي يتمكن من التعبير عن مقصوده بكلام فصيح ويسر بعيدا عن كل التعقيدات اللغوية والكلامية التي يمكن أن يتعرض لها المتكلم .

وذكرت الفصاحة أيضا في اصطلاح أهل المعاني بأنها: "عبارة عن الألفاظ البينة الظاهرة المتبادرة إلى الفهم ، والمأنوسة الاستعمال بين الكتاب والشعراء لمكان حسنها"⁴ ويقصد بهذا الكلام الواضح الذي سهل فهمه وألف استعماله .

وموضوع الفصاحة يختلف مدلوله الاصطلاحي عند الباحثين (لغويين وبلاغيين)، ويمكننا أن نحدد المدلول الاصطلاحي لكلمة فصاحة من خلال معايير الفصاحة التي حددت عند كل من المدرستين "البصرية" و"الكوفية"، وتمثل معايير اللغة الفصيحة عند المدرستين في مجموعة نقاط، نذكرها في الجدول الآتي وهي:

المدرسة البصرية	المدرسة الكوفية
أن تكون واردة في القرآن الكريم	أن تكون واردة في القرآن الكريم
أن تكون واردة في أشعار الجاهليين	أن تكون واردة في أشعار الجاهليين والإسلاميين
أن تكون من الموثوق بفصاحته عند الأعراب المعاصرين لهم	أن تكون مسموعة أي مما سمع وأعتقد أنه فصيح
أن تكون كثيرة الاستعمال	أن تكون موافقة للقياس الذي يعتقدونه

يتضح من معايير المدرستين وحسب وصف اللغويين أن أفصح لغة هي "لغة قريش"، فهي أكثر وروداً في القرآن الكريم، إضافة إلى ذلك خلوصها من الألفاظ الغريبة المخالفة للقياس أو عسيرة الفهم.

أما الفصاحة في اصطلاح البلاغيين فهي مرادفة لكلمة البيان والبالغة ولا فرق بينهما، يقول الجاحظ في ذلك: "فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل جعل الفصاحة أو اللكنة أو الخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب كله سواء، وكله بياناً"⁵. وانطلاقاً من هذه الأقوال يتضح أن الفصاحة في الاصطلاح تحمل معنى البيان والوضوح والظهور، وهي صفات للكلام والكلمة والمتكلم، من حسن في السمع وسهولة في الأداء وتلاؤم بين الكلمات والجمل. وعليه يمكننا القول أن الفصاحة يقصد بها جمال اللفظ وأناقة المظهر وقوة الأسلوب، فيكون الكلام ذا جودة وحسن، قريب للفهم، سهل الأداء، خالياً من عيوب اللغة والفهم على حد سواء.

2.2 مستويات الكلام العربي الفصيح:

تحتوي اللغة العربية على جوانب متعددة لفهمها لذا ينبغي اللجوء إلى وسائل عديدة تساعد على اكتشاف أسرارها وتحليل محتوياتها، حيث إن اللغة قسمت إلى مستويات، لكل منها خصائص متميزة، وتعمل هذه المستويات في تضافر وتناسق وترابط والتي لا يمكن فصل بعضها عن بعض، قيل في هذا الصدد: "هذه المستويات تعمل في تناسق وتكامل، ولا

يمكن فصل بعضها واستقلاله عن بعضه الآخر إلا ظاهريا ، ومن أجل غرض تعليمي ، فالترابط فيما بينها عضوي والتداخل بينها طبعي⁶ فتقسيم اللغة إلى مستويات يكون ظاهريا ومنهجيا فقط ؛ لأنها تتكامل فيما بينها. ومن بين أهم المستويات اللغوية المساعدة على فهم اللغة العربية نجد:

- المستوى الفردي

المستوى الفردي هو "الذي يختص بدراسة الكلمات المنفردة ، ومعرفة أصولها وتطورها التاريخي ، ومعناها الحاضر وكيفية استعمالها ويدخل تحته دراسة المعنى المعجمي أو القاموسي ، وكذا دراسة الكلمة ، وتاريخ نشأتها وتطورها والحقل اللغوي الذي تنتمي إليه"⁷ إذا المستوى الفردي يعني بدراسة المفردات اللغوية ، فيكون محور البحث فيه يركز على المفردات ويدخل ضمنه مسائل ذات علاقة بالتعدد الدلالي والاشتراك اللفظي والتضاد والتضاد وغيرها.. ، ويرجع إليه علماء اللغة لإحصاء المفردات واللغات بما فيها اللهجات لمعرفة درجة فصاحتها ، مثل إحصاء المفردات في لغة قريش ، كما ورد في كتاب الحاج صالح (السماع اللغوي عند العرب ومفهوم الفصاحة)⁸ الذي تحدث فيه عن المستوى الفردي في إحصاء المفردات ، وذكر أن علماء اللغة يستعينون بالمستوى الفردي لمعرفة درجة فصاحة اللغة

فكما هو معروف أنّ لغات قريش هي أفصح اللغات العربية كونها هي لغة القرآن الكريم يروى عن ابن عباس أنه قال: "نزل القرآن على سبع لغات منها خمس بلغة العجز من هوازنقال أبو عبيدة: والعجز هم سعد بن بكر ونصر بن معاوية ، وثقيف ، وهذه القبائل هي التي يقال لها عليا هوازن وهم الذين قال فيهم أبو عمرو أفصح العرب عليا هوازن وسلفي تميم...وقال إنّما يقال بنو فلان أفصح من بني فلان أي أشبه بلغة القرآن ولغة قريش ، على أنّ القرآن نزل بكل لغات العرب.

كما أحصى محمد حلمي موسى في كتابه "ألفاظ القرآن الكريم" جذور الأفعال والأسماء الواردة في القرآن الكريم على صورة مفردة ، وقد توصل إلى أن (1249) جذرا من الثلاثي تكرر أكثر من ثلاث مرات والباقي تكرر بين مرتين ومرة واحدة في النص القرآني.

والملاحظ من الدراسات الإحصائية المذكورة سالفا أنّ أغلبية هذه الجذور موجودة في العربية العامية وكلما تكررت في النص القرآني كان ورودها أكثر في العامية أذاك واللفظ كلما تردد أكثر في القرآن حظي بوجود أكبر في العامية وثبت عنه أنّه فصيح ، فمن المستحيل

أن تكون كلّ هذه الألفاظ القرآنية جارية اليوم على السنة النَّاس في لغة التخاطب العفوي ، إلا إذا كانت جارية في لغة التخاطب اليومي في زمن نزول القرآن وبعده .
- **المستوى التركيبي :**

هو المستوى الذي يهتم بدراسة العلاقة الرابطة بين المفردات والجمال وهو ما يدل على اجتماع كلمتين أو أكثر لعلاقة معنوية... ولكلّ منهما معان وحكم أصبح لهما بالتركيب حكم جديد... وهذا المستوى يعدّ من بين المستويات اللغوية التي ساعدت على تحليل اللغة وفهمها ؛ لذا تناوله الدارسون العرب قدامى ومحدثين **المستوى التركيبي** يهتم بدراسة العلاقات الرابطة بين الأبنية داخل نظام الجمال كما يهتم بالعناصر وحركاتها وتألفها في سياق تركيب معين ، وتختلف أنواع التركيب في اللغة وفقا للمكونات والتي من أهمها⁹ :

- **التركيب الإضافي :** أي المركبة من المضاف والمضاف إليه مثل : مباني المدينة آثارها .
- **التركيب الإسنادي :** وهو ما تركب من جملة فعلية بمعنى من فعل وفاعل أو نائب فاعل مثل : جاد المولى أو تركب من جملة اسمية أي مبتدأ مع خبره مثل : الخير نازل .
- **التركيب المزجي :** وهو المركب من كلمتين اتصلت الأولى بالثانية مشكلة كلمة واحدة ويكون آخر الكلمة الأولى ساكن وآخر الكلمة الثانية معربا أو مبني (مثل : بور سعيد)
- **التركيب العددي :** وهو أحد أنواع التركيب المزجي الذي يستعمل على غير علم ويقصد به كل عددين بينهما حرف عطف مقدر (مثل : أحد عشر وخمسة عشر) .

- **التركيب البياني :** ينقسم إلى تركيب وصفي ، أي ما تألف من صفة وموصوف (مثل : نجح الطالب المجد) وتركيب توكيدي ؛ أي ما تألف من مؤكّد ومؤكّده (مثل : نجح الطالب المجد) وتركيب توكيدي ، أي ما تألف من مؤكّد ومؤكّده (مثل : حضر الطلاب كلهم) .

إنّ كلّ هذه التراكيب تدخل ضمن اللغة العربيّة وتتنوع بحسب مكوناته وتتمثل أهمية المستوى التركيبي بالنسبة للغة العربيّة في كونه يساعد على فهم البنية اللغوية من خلال دراسة الأبنية في السياق التركيبي والتّعرف على أهم التراكيب اللغوية المؤلفة للنصوص ، فهو يقوم بتبسيط اللغة بوضع المفردات في أبسط صورة بغرض إيصال المعاني الكاملة المراد التعبير عنها ، ويدخل ضمن المستوى التركيبي المستوى النحوي ، فيدرك المتكلم العلاقات التي تربط عناصر التركيب بعضها ببعض من خلال سلسلة العلاقات النحوية ، فالمستوى النحوي يعدّ بمثابة الجسر الموصل إلى معنى التركيب وهو جزء منه إذ أنّهما لا ينفصلان عن بعضهما ، فغايتهما واهتمامهما واحد ، وهذا ما يفسر ما ورد في كتاب

سيبويه ، فقد فسر التراكيب في الكلام العربي انطلاقاً من العلاقات النحوية في الجمل ؛ أي المستوى النحوي.

وقد حفل "الكتاب" بالعديد من الجمل والعبارات التي أتى بها سيبويه للإشارة إلى قاعدة من القواعد النحوية الخاصة بتركيب الجملة العربية ، ومن تلك الجمل والعبارات ما أصدر عليه سيبويه بعض الأحكام التي تدل على صحتها أو وجوب الإعراض عنها ، أو استعمالها.

3 مستويات الفصاحة وتظاهراتها في كتاب سيبويه:

أولاً: المكانة العلمية للكاتب والكتاب

يعدّ كتاب سيبويه من أعظم كتب النحو والصرف ولا يزال محتفظاً بقيمته العلمية العظيمة منذ تأليفه منذ قرون عديدة وهو كتاب جمع فيه سيبويه كلّ قواعد النحو والصرف المتعلقة باللغة العربية ، وكان الأخفش سعيد بن مسعدة قد حمل الكتاب ونشره بين الناس. كما كان الناس يتهاذونه فيما بينهم ، فقد أهداه الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك فقال له: "أردت أن أهدي لك شيئاً فلم أجد أشرف من هذا الكتاب ، فرد عليه قائلاً: والله ما أهديت شيئاً أحب إليّ منه"¹⁰ ، ولم يطلق عليه بأنّه قرآن النحو إلا لأنّه كذلك.

وقد درس الناس العربية قديماً وبحثوا فيها ، لكن لم يصل إلينا مدونات من ذلك إلا بعد أن جاء سيبويه ، فجمع كلّ ما قام بدراسته وروايته عن شيوخه خاصة الفراهيدي ، وكان يستدل في كلامه بأدلة من القرآن الكريم وكلام العرب البلغاء الفصحاء كالشعر العربي الفصيح ، يقول الجاحظ عن كتاب سيبويه: "لم يكتب الناس في النحو كتاباً مثله وجميع ما كتب الناس عليه عيال"¹¹. فكتاب سيبويه هو معيار العربية وميزان جمالها وما كثر من تناوله بالبحث والدّرس والنقد من علماء اللغة العربية إلا دليل على ذلك "فالكتاب" لا يزال منبعاً صافياً فريداً لمن يريد العربية بمختلف فروعها وفنونها ، وكيف لا وقد كان القدماء يعظمونه ويقدرونه لدرجة أنّهم كانوا يتهاذونه أو يقتاتونه ليزينوا به مكتباتهم ، فسيبويه قدّم للنحو ما لم يقدمه أحداً حتى أصبح إمامه ونسيجه وحده.

وقد ذكرت الروايات أنّ القدماء أطلقوا على الكتاب "البحر" تشبيهاً له بالبحر لكثرة جواهره ودرره وصعوبة الغوص في موضوعاته وطروحاته فهذا المبرد كان إذا أراد أحد أن يقرأه يقول له "هل ركبتم البحر" وهذا تعظيماً له واستعظاماً لها فيه ، كما شهد الكتاب انتشاراً واسعاً في مجالس الدرس ببغداد وانتقل إلى مصر ، وتجاوز حدود المشرق إلى الأندلس¹².

وكان سيبويه قد جمع في كتابه "الكتاب" الكثير من علوم العربية كالنحو والصرف والأصوات اللغوية وغيرها ، واعتمد في ذلك على مصادر ومحاولات سابقة ، إذ تذكر الروايات

أنّه اعتمد على كتابي "الإكمال" و"الجامع" لعيسى بن عمر، كما نقل عن أشهر أساتذته كالخليل ويونس بن حبيب والأخفش، وأبو عمرو بن العلاء والأصمعي... واستشهد في الكتاب بالقرآن وكلام العرب الفصحاء من أشعار وأمثال وحكم...

وكان سيبويه يحظى بمنزلة كبيرة ومتقدمة خاصة في نفوس تلاميذه، وكتابه أيضا لما يحمله من قيمة عظيمة لهذا نجد علماء العربية يثنون عليه ويشيدون بهفكتاب سيبويه حظي بإشادة ومدح معظم النحاة، ومن بين هؤلاء نجد¹³: الهازني الذي قال: من أراد أن يؤلف كتابا كبيرا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي مما أقدم عليه وقال فيه المبرد: لم يعمل كتابا في علم من العلوم مثل كتاب سيبويه وذلك أن الكتب المصنفة في العلوم الأخرى مضطرة إلى غيرها وكتاب سيبويه لا يحتاج من فهمه إلى غيره. وقال فيه أبو جعفر الطبري: أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه بل وجعله مصدرا موثوقا للفتوى.

من خلال ما ذكر عن سيبويه وكتابه يمكن إجمال القول في أنّ "الكتاب" ظاهرة فريدة في تاريخ الفكر اللغوي، فالكتاب خطوة هامة ومميزة في تاريخ العربية لأنها ببساطة هي الانطلاقة الفعلية في العلوم العربية وللكتاب أهمية عظيمة وأثره باد وواضح في جلّ الدّراسات اللّغوية والنّحوية والصرفية.

3-3 المستوى الفصيح في كتاب سيبويه:

بالرجوع إلى كتاب سيبويه فإن هذه المستويات تعكسها الأقسام الواردة في كتابه من المفردات والتراكيب ومن ضمنها الإعراب والصيغ وأبنية الكلمات وتصاريفها والأصوات، وهذه بعض النماذج مما ورد في الكتاب حول مستويات استعمال الكلام العربي الفصيح.

أولا: المستوى الفردي:

في هذا المستوى تطرق سيبويه للنظام الصوتي العربي "حروف العربية" وحصّر النظام الصوتي العربي إلى قسمين¹⁴:

- حروف أصلية: وهي ما يتكلم به أكثر العرب

- حروف فرعية: وهي التي يكون استعمالها قليل حيث يقول في كتابه: "أصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفا... وتكون خمسة وثلاثين حرفا بحروف هن فروع وأصلها التسعة والعشرون، وهي كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار... وتكون اثنين وأربعين حرفا بحروف غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة ممن ترتضي عربيته ولا تستحسن في قراءة قرآن ولا في الشعر...، فسيبويه يقسم الحروف إلى حروف مستحسنة موجودة في لغة الفصحاء من العرب وقرأ بها القرآن ووردت في أشعار العرب فهي جيدة، مثل: ألف تقخيم،

النون الخفيفة ، أما الحروف غير المستحسنة فهي نادرة في لغة الفصحاء غير مأخوذ بها في القرآن ولا في كلام العرب ، مثل: الجيم التي كالشين ، والصاد التي كالسين .
كما تحدث أيضا عن التنوعات الصوتية وظواهرها التي تحدث على النظام الصوتي الفصح كالإدغام ، أي إدغام الحرفين في المضعف ، يقول: إذا تحرك الحرف الآخر في المضعف فالعرب مجمعون على الإدغام ، فإذا كان حرف في موضع تسكن فيه لام الفعل فإن أهل الحجاز يضاعفون...وهو قول غيرهم من العرب وهو كثير...وذلك قولك ردّ وفرّ وعصّ¹⁵ .
إنّ سبويه في هذا المقام يبين أن الإدغام فصيح في الكلام ؛ لأنّ العرب كلّها تنطق به ، يقول في هذا الصدد: ومما يدغم إذا كان الحرفان من مخرج واحد وإذا تقارب المخرجان قولهم: يطوعون في يتطوعون ، ويذكرون في يتذكرون ويسمعون في يتسمعون والإدغام أقوى إذ كان يكون في الانفصال ، والبيان فيهما عربي حسن لأنّهما متحركان ؛ أي أن الإدغام هو الأفصح والأقوى درجة من الانفصال في الحرفين وقد وصف ذلك ؛ أي الانفصال في الحرفين أنّه "عربي حسن" ؛ أي أنّه فصيح . كذلك قوله: "قد حي في هذا المكان ، وقد عي بأمره وإن شئت قلت قد حيي في هذا المكان وقد عيي بأمره والإدغام أكثر والأخرى عربية كثيرة"¹⁶ ، فهو يرى أن الإدغام أكثر فصاحة من فكّه (الادغام).

ونجده يواصل حديثه في الكتاب عن التّنوع في الأنظمة الصرفية ، كنظام الضمائر حيث أن العرب تستعمل نظاما واحدا فيما يخص الضمائر المنفصلة والمتصلة ، لكن هناك تنوعات جزئية تنسب إلى جماعة معينة ولكنها لا تكون بالضرورة نظاما لهجيا خاصا بقبيلة دون أخرى فكلّ العرب متفقون على جوهر النظام ، إذ يقول عن حذف حرف المدّ من الضمير الغائب ومده " أنّه أكثر والإتّمام عربي"¹⁷ ، ومثال ذلك قوله: فأما الثبات فقولك ضرب هو زيد ، وعليها مال ، ولديهو رجل ...فإذا كان قبل الهاء حرف لين فإن حذف الياء والواو في الوصل أحسن لأنّ الهاء من مخرج الألف والألف تشبه الياء والواو ، وتشبههما في المد وهي أختهما ، فلما اجتمعت حروف متشابهة حذفوا وهو أحسن وأكثر ، وذلك قولك عليه يا فتى...ورأيت أباه...وأحسن القراءتين ﴿ونزلناه تنزيلا﴾ [الاسراء:106] ﴿وشروه بثمن بخس﴾ [يوسف:20]...والإتّمام عربي"¹⁸ .

ويقصد بالإتّمام في الضمير أنّه موجود في كلام العرب وفصيح ، ولكن الحذف أكثر وأحسن في الكلام من الثبات ؛ لذا فالحذف أفصح من الثبات في هذه الحالات من الكلام العربي الفصح . كما تكلم سيبويه أيضا عن أحوال الرّفع والنّصب في مفردات العربيّة ، وورد هذا في حديثه عن القراءات القرآنية في الآية الكريمة ﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ [فصلت:18] يقول:

فالتَّصَبُّعُ عربي كثير الرفع أجود، فاختلف القراء حول الآية الكريمة فمنهم من قرأها بالتَّصَبُّع ومنهم من قرأها بالرفع¹⁹، وقال سيبويه عنها أن التَّصَبُّعُ عربي أي فصيح ولكن الرفع أجود أي أفصح في القراءة، وجعل التَّصَبُّع في المستوى الثاني من الفصاحة. ثانيا: المستوى التركيبي:

لقد أورد سيبويه في كتابه العديد من التراكيب النحوية، واستدل عليها بكلام العرب الفصيح، منها ما جاء في باب التقديم والتأخير، نذكر أولا فيما يخص الجمل الفعلية والاسمية، فمثلا قد يتقدم المفعول على الفاعل في الجملة الفعلية يقول سيبويه في هذا الصدد: "فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول وذلك قولك: ضرب زيدا عبد الله... وهو عربي جيد كثير"²⁰، فالتقديم والتأخير، في كلام العرب شائع ولا يختل بيان معنى الكلام سواء قدمنا أو أخرنا، ومنه فهو فصيح، إذ أنه من خصائص اللغة العربية، كما يقول ابن جني في هذا الشأن والأمر في كثرة تقديم المفعول على الفاعل في القرآن وفصيح الكلام متعالم غير مستنكر. كما أشار سيبويه إلى أن الأصل في كلام العرب هو تقديم الفاعل عن المفعول، فالفاعل دائما يتبع الفعل في حين يمكن الاستغناء عن المفعول²¹، ويصف هذا الكلام بأنه عربي؛ أي فصيح ولكن هناك أصل في هذا الكلام عند العرب ويكون هو الأفصح من الفرع الفصيح. والأمر ذاته بالنسبة لتقديم المفعول على الفعل حيث يقول في هذا الباب: "هذا باب ما يكون فيه الاسم مبنيًا على الفعل، قدم أو أخر، وما يكون فيه الفعل مبنيًا على الاسم، فإذا بنيت الاسم عليه قلت: ضربت زيدا، وهو الحد... وإن قدمت الاسم فهو عربي جيد. كما كان ذلك عربيا جيدا وذلك قولك: "زيدا ضربت"²²، فسيبويه يرى أن في الحالتين: عربي؛ أي فصيح ولكنه جعل الأول أكثر فصاحة فهو الأصل في كلام العرب الفصحاء والثاني فرع عنه.

هذا فيما يخص الجملة الفعلية أما الجملة الاسمية فنجد أنه يتحدث عن تقديم الخبر على المبتدأ يقول في ذلك: "وزعم الخليل رحمه الله أنه يستقبح أن يقول قائم زيد، وذلك إذا لم تجعل قائما مقدما مبنيًا على المبتدأ، كما تؤخر وتقدم فتقول: ضرب زيدا عمرو، وعمرو على ضرب مرتفع، وكان الحد أن يكون مقدما ويكون زيدا مؤخرا، وكذلك هذا الحد فيه أن يكون الابتداء فيه مقدما، وهذا عربي جيد"²³؛ أي أنه كلام عربي فصيح فجملة (قائم زيد) يجوز فيها الابتداء ب (زيد) ويصلح فيها التقديم والتأخير، وكان الأصل أن يكون المبتدأ مقدما ولكن التأخير واجب في بعض المواضع إذا كان المعنى لا يفهم إلا من تأخير²⁴، ولكن التقديم هو الأفصح

في كلام العرب حتى لا يتعرض الكلام إلى تعقيد وغموض. وقد ذكر سيبويه مثالا في الترتيب كقوله: زعم أن: كم درهما لك أقوى من: كم لك درهما، وإن كانت عربية جيدة، فجعل (كم لك درهما) فصيحة جيدة ولكن المثال الأول هو أقوى درجة وأفصح من المثال الثاني. كما تحدث في باب اضممار العامل فقال في باب ما يضر فيه الفعل المستعمل إظهاره بعد حرف: "وإذا أضمرت فإن تضرر النَّاصِبُ أحسن، لأنَّك إذا أضمرت الرَّافِعَ أضمرت له خبرا، وإن أضمرت الرَّافِعَ كما أضمرت النَّاصِبَ فهو عربي حسن"²⁵، ومثَّل لذلك بقول العرب: "النَّاسُ مجزيون بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شر فشر؛ أي إن كان عملهم خيرا فجزاؤهم خير، ويجوز إن خير فخيِّرا، بتقدير إن كان في عملهم خير فيجزون خيرا، ويجوز نصبهما ورفعهما، والأوَّل أرجحها والثاني أضعفها"²⁶، ويقصد بكلامه أن اضممار النَّاصِبِ يكون أجود في كلام العرب من اضممار الرَّافِعِ فعند اضممار الرَّافِعِ يضرر معه الخبر، فحتى لو كان كما قال "عربي حسن"؛ أي فصيح فإن اضممار النَّاصِبِ يكون أفصح منه.

ومما ورد أيضا في مستويات استعمال الكلام العربي الفصيح عند سيبويه قوله: "إذا ذكرت مفعولين كلاهما غائب، فقلت أعطاهوها وأعطاهها جاز وهو عربي، ولا عليك بأيهما بدأت من قبل أنهما كلاهما غائب، وهذا أيضا ليس بالكثير في كلامهم، والأكثر في كلامهم أعطاه إياه"²⁷ فهو هنا يصف قولهم (أعطاهوها وأعطاهها) بأنه عربي فصيح، ولكن ليس منتشرا أو مستعملا لدى الكثير منهم، فالأكثر استعمالا عند العرب قولهم (أعطاه إياه) وبالتالي فهو الأكثر فصاحة عند سيبويه وهو الأفصح من منظوره.

أمَّا قوله عن حذف حروف العلة: "إلا أنهم قالوا لا أدر، في الوقف، لأنَّه كثر في كلامهم فهو شاذ... وجميع ما لا يحذف في الكلام، وما يختار فيه أن لا يحذف في الفواصل والقوافي... وإثبات اليباءات والواوات أقيس الكلامين وهذا جائز عربي كثير"²⁸، يقصد أن حذف حرف العلة في الوقف كثر استعماله عند العرب ولكنه شاذ، في حين الأصح والأقيس هو الإثبات، فسيبويه يريد بكلامه هذا أن يصف الشاذ وهو الحذف بالعربي أي الفصيح، والإثبات بالأقيس أي الأكثر قوة وجودة في كلام العرب الفصحاء، ويتبين من الكلام الذي أورده سيبويه في الكتاب والذي استعمل عبارات "عربي جيد"، "عربي حسن"، "عربي كثير"... ليحكم على القواعد النحوية التي استعملها العرب والتي وصف من خلالها مستويات الكلام العربي، والتي أطلقها على ما كان معروفا منتشرا وسائدا متداولاً في كلامهم وهو كثير الاستعمال عندهم، كما أن استعمالها يبين درجات الفصاحة في كلام العرب وهي عنده مستويات ولذلك نجده يوضح التباين في الكلام العرب الفصيح من خلال تركيزه على

استخدام عبارات "أكثر"، "أقوى" و "أحسن"...في تعبيره عن الجودة والدقة والأصالة في لغة العرب.

إنّ سيبويه لم يهتم في كتابه الكتاب بموضوع الإعراب والبناء فقط ، بل اهتم بالسبل التي اتخذها العرب للتعبير عن أغراضهم ومقاصدهم ، ونجده يهتم بالتركيب والتأليف بين العبارات والجمل والكلمات ، حيث إنّه درس اللغة العربيّة بغية الكشف عن خصائصها وموافقتها للسياقات الكلامية والتمييز بين الحسن والقبيح من الكلام العربيّ وهذا ما يفسر وجود كثير من الأحكام التي أطلقها على الاستعمالات اللغوية ، من بينها نجد "الحسن" و "القبيح" ويعني بالحسن المستعمل من كلام العرب والقبيح غير المستعمل من كلامهم ، فهذا الحكم مرتبط بأداء المعنى ، وتحقق الفصاحة وكذلك سائر أحكام الجودة في الكتاب. ومن الشواهد التي أوردها سيبويه في الكتاب والتي دلل بها على مستويات الفصاحة في استعمالات العرب نذكر منها ما يلي :

- ما وصفها بالحسن في أحوال اللفظ في القواعد التحوية كالرفع جاء في قوله "الرفع في هذا أحسن" والتّصّب في قوله "والتّصّب في زيد أحسن" والتعريف في قوله "وحسن فيه الألف واللام".

- ما وصفها بالحسن في أحوال التراكيب وهي استعمالات كثيرة ومثال ذلك قوله: "في الإثبات" اثبات النون أحسن" ، وفي الحذف "وإن حذفت فحسن" ، وفي التقديم " وإن قدمت الاسم فعربي حسن" ، والتأخير قوله "فكلما أخرت الذي تلغيه كان أحسن" والفصل " كما أن كلما كان حسن كان لك أن تفصل فيه بين العامل والمعمول بما يحسن السكوت عليهن حسن لك أن تفصل فيه بينهما بما يقبح عليه السكوت ، وغير ذلك من أحوال التركيب.

أما ما أورده عن القبح ويقصد به ما لا يعتبر فصيحاً ، فهو ما عبر عنه بغير الجيد من كلام العرب. إضافة إلى هذا فقد خصص باباً في بداية الكتاب تحدث فيه عن صحة التراكيب واستقامتها وبين مراتب الكلام إذ يقول: " هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة ، فمنه مستقيم حسن ومحال ، ومستقيم كذب ، ومستقيم قبيح ، وما هو محال كذب"²⁹ ؛ أي أنّه قسّم الكلام إلى كلام مستقيم وهو الجائر ، وكلام محال وهو غير الجائر من الكلام العربي قبل بدئه للتقعيد في العربية. فقد تمسك بمبدأ صارم في تدوينه للكتاب ، فلم يأخذ بغير الفصح أبداً ، واعتمد مقياس كثرة المستعملين للعبارة الواحدة مع التنبيه على قلتهم بالنسبة لعبارة أخرى وهذا ما أشار إليه في كلّ صفحة من كتابه : هذا عربي كثير وهذا أكثر وأعرف ، ويوضح

سيبويه المواضيع التي يستقيم فيها الكلام مع السياق والمواضيع التي يستحيل فيها ذلك بالتمثيل المفصل كما ذكرنا سابقا.

ومن هذا المنطلق جعل في الكلام مراتب ودرجات ووضح التباين في مستويات الكلام وفرق الفصح من غير الفصح في الكلام العربي الذي استدل به في تقعيده للغة العربية.

4- خاتمة:

نستخلص من هذه الدراسة أنّ سيبويه يحمل من المواضيع اللغوية الجديرة بالاهتمام والبحث والدراسة من قبل الباحثين في حقل الدراسات اللغوية عموما واللسانية على وجه الخصوص ، وقد توصلنا من خلال ما تقدم إلى أنّ:

- الكتاب أسهم في إثراء الدرس اللغوي العربي وأعلى شأنه ، بحيث حجز هذا الكتاب مكانة مرموقة في الدرس اللساني العربي الحديث.

- ما جاء به سيبويه حظي باهتمام علماء العربية على اختلاف توجهاتهم وتخصصاتهم فشهد عناية كلّ من اللغويين ، والبلاغيين ، والمتكلمين والكتاب والنقاد.

- يعدّ سيبويه إمام النحاة فهو المؤسس الحقيقي لعلوم اللغة العربية ، وكتابة أعظم الكتب العربية التي وصلت إلينا في مجال تقعيد اللغة وهو ظاهرة فريدة في تاريخ الفكر اللغوي العربي.

- حظي الكتاب بإشادة ومدح معظم علماء اللغة وقد تجاوز أثره إلى ما هو متعلق بالمستوى النحوي والتركيب والأسلوبي.

- درس سيبويه اللغة العربية بغية الكشف عن خصائصها ومعرفة السبيل الذي سلكه العرب للتعبير عن أغراضهم ومقاصدهم ، ولم يدون في كتابه كلاما خارجا عن الكلام العربي الفصح.

- الفصاحة عند سيبويه تقتصر على الكلام العربي كثير الاستعمال ، والذي يكون عند العرب الموثوق بعربيتهم ، وكان يطلق صفة الفصاحة على الناطقين بها.

- اعتمد سيبويه في تحديد مستويات الكلام والحكم عليه على مقياس كثرة المستعملين للعبارة الواحدة مع الإشارة إلى قتلها بالنسبة لعبارة أخرى ، وهذا ما أشار إليه في صفحات كتابة. هذا عربي كثير ، وهذا أكثر وأعرف ، وهذا قليل أو لا يكاد يعرف ، هذا أحسن...وهي

عبارات وردت في الكتاب وهي تدل على مستويات الكلام العربي الفصيح ، حيث يرجع وصف الكلام بها إلى تمام التركيب والتأليف.

- كتاب سيبويه كتاب عظيم لا يزال يمد الدارسين بأفاق رحبة لفتح دراسات في النحو وعلوم اللغة ، لذلك مازال هذا الموضوع يحتاج إلى تعمق ودراسة مسائله وقضاياه وخباياه التي لا تنضب.

- جهود سيبويه تعدّ حجر الأساس في النظرية اللغوية ، وهذا في حد ذاته تأصيل للسانيات عربية.

- جهود سيبويه فتحت الباب أمام الباحثين اللسانيين للخوض في قضايا التراث العربي التي تدعو إلى إحياء الفكر اللغوي واستقراره حتى يتوافق مع الدراسات اللسانية الحديثة وهو جدير بذلك ولا غرو.

5- مصادر البحث ومراجعته:

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

1. ابن النديم ، الفهرست ، تح: أيمن فؤاد سيد ، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، ط 1 ، 1430-2009.
2. ابن خلكان وفيات الأعيان ، تح: إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ج 3 ، 1972.
3. ابن منظور ، لسان العرب ، تح: عبد الله علي الكبير- محمد أحمد حسب الله- هاشم محمد الشاذلي ، كورنيش النيل ، [د.ت.] ، القاهرة ، [د.ت.].
4. أحمد ابن فارس ، مقاييس اللغة ، تح: عبد السلام هارون ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع [د.ط.] ، [د.م.] ، [د.ت.] ، باب الفاء والصاد ومثلثها.
5. أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، تد: يوسف سمايلي ، المكتبة العصرية ، [د.ط.] ، صيدا- بيروت ، 1999.
6. الأزهرى ، تهذيب اللغة ، تح: عبد السلام هارون ، الدار المصرية ، مصر ، د.ت. ، ج 1 ، د.ت.
7. الجرجاني ، التعريفات ، مكتبة لبنان ساحة رياض الصلح ، ط. جديدة ، بيروت ، 1995م.
8. الجوهري ، الصحاح ، تاج اللغة وصحاح العربية ، تح: عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط 4 ، ج 1 ، 1990م.
9. الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ط 2 ، د.ت.
10. الزمخشري ، أساس البلاغة ، تح: محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، ط 1 ، بيروت-لبنان ، ج 1419 ، 2-1998م.
11. إيمان بن حناشي ، جهود اللسانيين ، في إعادة وصف اللغة العربية وظيفيا ، تمام حسان من خلال مصنفه اللغة العربية معناها ومبناها ، جامعة خيضر ، بسكرة ، 1433هـ-2012م.

12. جزء المصاروة، المستوى الثاني من مستويات الاستعمال اللغوي عند سيويو، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الأردن، ط 2015، 1.
13. درية ياسين عبد الرحمن أحمد، ابن سنان الخفاجي وجهوده البلاغية والنقدية من خلال كتابة سر الفصاحة، رسالة دكتوراه في البلاغة، جامعة أم درمان الإسلامية -كلية اللغة العربية-قسم الدراسات الأدبية والنقدية، إشراف محمد حسن علي الأمين، 1430هـ-2009م.
14. سيويو، الكتاب، عبد السلام هارون، المطبعة الأميرية، بولاق، مصر، ج 1، 1316هـ.
15. عامر عبد الله الثبيتي، المآخذ على فصاحة الشعر إلى نهاية القرن الرابع الهجري، الجامعة الإسلامية، ط 1، المملكة العربية السعودية، 1428هـ-2007م.
16. عبد الرحمن الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعة، د ط، الجزائر، 2012م.
17. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها، دار القلم، ط 1، دمشق، ج 1، 1416هـ-1996م.
18. عبد القادر سالمي، التركيب وأهميته اللسانية بين القدماء والمحدثين، مجلة آفاق، مجلة دورية نصف سنوية، جامعة تلمسان، الجزائر، ع 13، أبريل 2017.
19. عبد الكريم مجاهد، علم اللسان العربي (فقه اللغة العربية)، جامعة القدس المفتوحة، ط 1، عمان، 1998م.
20. محمد عبد الخالق عضيمة، فهارس كتاب سيويو، ودراسة له، جامعة الأزهر، ط 1395، 1هـ-1975م.

7-الهوامش والإحالات:

- ¹ -أحمد ابن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، [د.ط.]، [د.م.]، [د.ت.]، باب الفاء والصاد ومثلها، ص 506.
- ² -الجرجاني، التعريفات، مكتبة لبنان، ساحة رياض الصلح، طبعة جديدة، بيروت، 1995م، ص 174.
- ³ -عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، البلاغة العربية أسسها وعلومها وصور من تطبيقاتها، دار القلم، دمشق، ط 1، 1416هـ-1996، ص 111.
- ⁴ -أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تح يوسف سمالي، المكتبة العصرية، [د.ط.]، صيدا-بيروت، 1999م، ص 19.
- ⁵ -المرجع السابق، ص 22.
- ⁶ -عبد الكريم مجاهد، علم اللسان العربي (فقه اللغة العربية)، جامعة القدس المفتوحة، عمان، ط 1998، 1م، ص 25.
- ⁷ -إيمان بن حناشي، جهود اللسانيين العرب في إعادة وصف اللغة العربية وظيفيا، تمام حسان من خلال مصنفه اللغة العربية معناها ومبناها، جامعة محمد خيضر، بسكرة صلاح الدين علاوي، 1433هـ-2012م، ص 188.

- ⁸ - عبد الرحمن الحاج صالح ، السماع اللغوي العلمي عند العرب مفهوم الفصاحة المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، [د.ط.] ، الجزائر 2012م ، ص 201.
- ⁹ - عبد القادر سلامي ، التركيب وأهميته اللسانية بين القدماء والمحدثين ، مجلة آفاق علمية ، مجلة دورية نصف سنوية ، جامعة تلمسان ، الجزائر ، ع 13 ، أبريل 2017 ، ص 132.
- ¹⁰ - ينظر: ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج 3 ، ص 133.
- ¹¹ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج 3 ، ص 133.
- ¹² - ينظر: السيوطي ، بغية الوعاة ، ص 312.
- ¹³ - محمد عبد الخالق عضيمة ، فهارس كتاب سيبويه (ودراسة له) ، جامعة الأزهر ، ط 1 ، [د.م.] ، 1395هـ-1975م ، ص 80/09.
- ¹⁴ - سيبويه ، الكتاب ، تح: عبد السلام هارون ، دار الجيل ، ط 1 ، بيروت ، ج 4 ، [د.ت.] ، ص 431.
- ¹⁵ - الحاج صالح ، السماع اللغوي عند العرب ومفهوم الفصاحة ، ص 241/228.
- ¹⁶ - سيبويه ، الكتاب ، ج 4 ، ص 395.
- ¹⁷ - ينظر: الحاج صالح ، السماع اللغوي عند العرب ومفهوم الفصاحة ، ص 245.
- ¹⁸ - سيبويه ، الكتاب ، المرجع نفسه ، ج 4 ، ص 189.
- ¹⁹ - السامرائي ، الترجيح النحوي بالسماع عند سيبويه ، ص 6.
- ²⁰ - سيبويه ، الكتاب ، تح: عبد السلام هارون ، المطبعة الأميرية ببولاق ، مصر ، ط 1 ، ج 1 ، 1316هـ ، ص 14.
- ²¹ - جزاء المصاروة ، المستوى الثاني من مستويات الاستعمال اللغوي عند سيبويه ، ص 202.
- ²² - سيبويه ، الكتاب ، ج 1 ، ص 14.
- ²³ - سيبويه ، الكتاب ، تح: عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، ط 3 ، القاهرة ، ج 3 ، 1408هـ-1988م ، ص 127.
- ²⁴ - ينظر ، جزاء المصاروة ، المستوى الثاني من مستويات الاستعمال اللغوي عند سيبويه ، ص 203.
- ²⁵ - سيبويه ، الكتاب ، ج 1 ، ص 259/4 ، ج 4 ، ص 395.
- ²⁶ - جزاء المصاروة ، المستوى الثاني من مستويات الاستعمال اللغوي عند سيبويه ، ص 203.
- ²⁷ - سيبويه ، الكتاب ، ج 2 ، ص 365.
- ²⁸ - سيبويه ، الكتاب ، ج 4 ، ص 185 ، 184.
- ²⁹ - سيبويه ، الكتاب ، ج 1 ، ص 8.